الإرهاب في العراق الإشكاليات والآفاق (٣-٥)

الغلاة الجدد سبيكة الانحطاط الشامل!

ميثم الجنابي

عندما تواجه الشعوب والأمم والدولة مهمات الانتقال العاصف أو الانقلاب التاريخي الهائل، فان من الصعب توقع أن تكون أفعالهم وأقوالهم عقلانية بالضرورة. بل عادة ما تصبح العقلانية الرؤية الأكثر تعقيدا وندرة. وهو الأمر الذي يشير إلى الحقيقة القائلة، بان الانقلاب العنيف والمفاجئ عادة ما يذهل المرء، ويجبره على الغيبوبة مهلة من الزمن لكي يكون بإمكانه تأمل مقدمات الأحداث ونتائجها الممكنة. وهي حالة أكثر تعقيدا بالنسبة للفئات الاجتماعية والقومية. بل اشد تعقيدا ودرامية في الظروف التي يقف أمامها العراق حاليا. وهو الأمر الذي يجعلها خلافا لحالات الانتقال التي لم يخل منها تاريخ أمة ودولة، حالة فريدة من حيث قواها الاجتماعية والسياسية وسندها الأخلاقي. إذ يقف العراق أمام انتقال جرى بمعزل عن تحكم أرادته الخاصة به وفي ظل ضعف شبه شامل لقواه الاجتماعية والسياسية وهشاشة البنية الاقتصادية للدولة واندثار سندها الأخلاقي والمعنوي. وفي ظل ظرف كهذا فان من الصعب توقع أن تكون ردود الفعل من قبل الجميع متسمة بالقدر الضروري الذي تفترضه الحكمة السياسية والتاريخية للمجتمع وقواه السياسية والفكرية. وهو واقع عادة ما يفرز اشد الصور والنماذج تطرفا وراديكالية في التعامل مع النفس والآخرين. كما أنها الحالة التي تجعل من الفكر جزءاً من الأهواء السياسية. بينما تفقد السياسية أبعادها الاجتماعية. أما تكامل الفكر والاجتماع والسياسة في وحدة مربوطة ومعقولة بفكرة الدولة والهوية الوطنية، فانه يتطلب في الأقل حدا أدنى لتذليل حالة الانتقال ونفسية المؤقت في سلوك وشخصية الأفراد والجماعات والأحزاب السياسية. وهو أمر ممكن فقط من خلال ترسيخ بنية الدولة الشرعية ومؤسساتها المحترفة. فهو الأسلوب القادر على صنع النظام الضروري للحرية الفردية والاجتماعية ومن ثم تأهيل الجميع لرؤية الحد الفاصل بين المفاهيم والقيم. حينذاك يصبح من الممكن رؤية الأبعاد الضرورية في مفاهيم وقيم المجتمع المدني والديمقراطية والعدالة والحق والنضال والجهاد والمقدس وغيرها. وإذا كانت كلمة الجهاد والمقدس أكثر الكلمات إثارة في مجال الوعي الاجتماعي والسياسي والأخلاقي في ظروف العراق الحالية، فلأنه يعاني من شحة مضمونها الحقيقي بسبب إفراغه شبه التام منهما في زمن التوتاليتارية البعثية والدكتاتورية الصدامية، التي ابتذلت كل المعاني الإيجابية الممكنة في فكرة الجهاد والمقدس. وجعلت منهما مجرد كلمات مثيرة للتقزز وذلك بسبب رفعها ممارسة كل الأصناف المتخيلة للإرهاب تحت شعارات "الجهاد المقدس". بعبارة أخرى، إنها اختزلت الجهاد والمقدس في أفعال تتعارض بصورة مطلقة مع المضمون المتراكم فيهما تاريخيا بدءاً من عصر الخليقة وانتهاء بالعثور على صدام في مخبأ الفئران! وهي صورة تعبر من الناحية التاريخية عن الضعف الفعلي في بنية الدولة والمجتمع وعدم قدرتهما على تجاوز مرحلة الأسطورة إلى مصاف المنطق في التعامل مع الإشكاليات الواقعية التي تواجهها الدولة والمجتمع. حينذاك يصبح "المقدس" الشعار الذي ينبغي أن يستقطب القوى الكامنة في الأفراد والجماعات والأمة في قبضة واحدة قادرة على التلويح والمواجهة والعراك. حينذاك يصبح المقدس فعلا سياسيا له معناه وقيمته الفعلية. أما في ظل افتقاد الأفراد والجماعات والأمة إلى دولة قادرة على تقديم نفسها باعتبارها حاضنة وجودهم التاريخي وهويتهم الوطنية، فان الكلمات المعلنة والشعارات المدوية في سماء الإعلام تصبح مجرد أصوات مثيرة للسماع فقط. مما يجعل منها صخبا مزعجا ويفقد الكلمات معناها. حينذاك تؤدي بالضرورة إلى إثارة أفعال مضادة لما في أصولها الأولى. ولعل كلمتي الجهاد والمقدس من بين أكثرها نموذجية بهذا الصدد في ظروف العراق الحالية. لاسيما ان الكثير من الأعمال الإجرامية التي جرى ويجري اقترافها في العراق حاليا عادة ما تؤطر وتقدم على أنها جزء من تاريخ "مقدس" و"جهاد" من اجله. ومن ثم يمكن النظر إلى مظاهر الإرهاب والتخريب الحالية في العراق على أنها جزء من تقديس العنف المميز لزمن التوتاليتارية والدكتاتورية. إن ما جرى ويجري من انفلات إرهابي هو التعبير النموذجي عما يمكن دعوته بالاستظهار السياسي العابر للأمراض المزمنة الموروثة من بقايا التوتاليتارية والدكتاتورية وتقاليد الاستبداد. إذ نعثر فيما يجري ليس فقط على محاولة إثارة الفتنة الطائفية، بل استمرار لها. وذلك يعني أن هذا النوع من "الجهاد" ما هو في الواقع سوى الصيغة الأكثر تطرفا للخروج على إمكانية الإجماع العراقي حول مبادئ وقيم يمكنها أن تعيد إنتاج المعنى الحقيقي لفكرة المقدس بوصفه كل ما لا يمكن ابتذاله، ولفكرة الجهاد بوصفه أسلوبا للمساهمة العقلانية في بناء الذات العراقية. وعي استعادة تفترض الانطلاق من تحديد طبيعة الصراع الحالي وآفاقه، بوصفه صراعا بين ممثلي تقاليد الاستبداد والتوتاليتارية والتقليدية من جهة، وقوى الديمقراطية والدولة الشرعية والمجتمع المدني من جهة أخرى. وليست القوى الأولى سوى تلك التي تعرضت إلى هزيمة سياسية ساحقة، لكنها مازالت تتمتع برصيد أيديولوجي واجتماعي نسبي في العراق، وكبير لحد ما على الصعيد العربي والإسلامي وبالأخص بين القوى التي ارتبطت به سياسيا وتاريخيا طوال وجوده في سدة الحكم. ومن حصيلة هذه القوى الداخلية والخارجية يجري صنع هذه السبيكة الجديدة من التطرف والإرهاب اللذين يشكل الغلاة الجدد في العراق نواتها الفاعلة. وهي قوى لا تدرك الحقيقة البسيطة القائلة، بان الاستبداد مصيره الزوال. الا أننا نعرف في الوقت نفسه، بان زواله عادة ما يثير كميات هائلة من المشاكل والمعضلات التي تقع على الأجيال اللاحقة مهمة حلها. وليس ما يجرى في العراق حاليا سوى الاستمرار"الخفي" لتقاليد الاستبداد، التي جرى إعادة إنتاجها من خلال ملابسات تاريخية هائلة، مرتبطة بطبيعة الاحتلال الكولونيالي للعالم العربي وتجزئته وبعثرة التراكم الفكري والاجتماعي والمؤسساتي فيه من خلال الانقلابات العسكرية وصعود الهامشية إلى السلطة وسيادة النزعة الراديكالية. وبمجموعه أدى ذلك إلى صنع توتاليتاريات دنيوية ودينية، ليس الغلاة الجدد سوى الصيغة الأكثر همجية لها. إلا انه تيار بلا آفاق واقعية، لان ما يجمع مكوناته هو العداء العلني والمستتر لفكرة الدولة الشرعية والنظام الديمقراطي والمجتمع المدني، أي ضد التيار الكاسح للتقدم والحرية. أما الالتفاف برداء "المقدس" فانه لا يقدس المرء.! إن ما "يقدسه" هو العمل الصالح. وليس هناك من عمل صالح يمكنه الارتقاء إلى مصاف المقدس في ظروف العراق الحالية والعقود القليلة القادمة أكثر من وحدة الدولة الشرعية والنظام الديمقراطي الاجتماعي والمجتمع المدني.

نحو تحالف جديد وواسع لقوى وشخصيات التيار الوطني والديمقراطي العراقي

كاظم حبيب

تشير أخبار الحركة السياسية العراقية إلى حراك جديد في صفوف قوى التيار الديمقراطي العراقي يسعى إلى تشكيل تحالف سياسي يضم إليه جميع أو أغلب من يحسب على قوى التيار الوطني والديمقراطي العراقي من أحزاب وتكتلات وشخصيات سياسية واجتماعية ، إنه الشارع العريض الذي يمكن أن يحقق ولأول مرة بعد خلع النظام الدكتاتوري ، إمكانية سير جميع قوى وشخصيات التيار الوطني والديمقراطي فيه لمواجهة الكثير من المخاطر التي تتهدد العراق في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ العراق.

ويفترض في جميع القوى والشخصيات الديمقراطية في الداخل والخارج أن تحيي هذا التوجه للتحالف الوطني وتسعى إلى توضيح أهدافه وقواه وشخصياته وتبرز القواسم المشتركة من الأهداف التي تلتقي عندها قوى التيار الوطني والديمقراطي العراقي. إن على قوى هذا التيار أن توضح جملة من المسائل التي بدونها يصعب التمييز بينها وبين تيارات سياسية أخرى قائمة في البلاد. فوضوح الحدود والمهمات يساعد على تحقيق استقطاب من نوع آخر غير الاستقطاب الذي تحاول قوى التيار الإسلامي السياسي السني والشيعي في آن واحد صنعه في البلاد، تلك القوى التي تدين بالولاء للمذهب سياسياً وليس دينياً فحسب، وهو الأمر الأكثر خطورة وتشتيتاً للقوى وتمزيقاً للوحدة الوطنية العراقية.

إن أمام قوى التيار الوطني والديمقراطي أن تؤكد ما يلي:

١- إنها ترفض أي شكل من أشكال الفردية والاستبداد في الحكم، وأياً كان الحزب أو التحالف الحاكم.

٢- أن ترفض العنصرية والشوفينية والطائفية السياسية رفضاً قاطعاً وتؤمن بحقوق القوميات، وتلتزم بحقوق المواطنة المتساوية والحقوق المتساوية للمرأة والرجل وتمارسها.

٣- أن تكرس وجود دولة اتحادية ديمقراطية تستند إلى الحياة البرلمانية الحرة والديمقراطية والتعددية السياسية وممارستها بصورة نزيهة وشفافة.

٤- أن تفصل بين السلطات وأن تمارس سياسة إبعاد الأديان أو المذاهب عن الحكم فعلاً، إذ أن ذلك في مصلحة المجتمع والأديان والمذاهب والحكم في آن واحد.

٥- أن تعتمد الآليات السلمية والديمقراطية في معالجة مشكلات البلاد السياسية والقومية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية مع الجيران.

٦- أن تدافع عن مصالح الشعب وحقوقه وتحسين مستوى حياته ومعيشته وتكافح البطالة الواسعة حالياً.

٧- أن تناضل في سبيل إعادة الأمن والاستقرار للبلاد وتحارب الإرهاب بأقصى إمكانياتها جنباً إلى جنب مع معالجة مشكلات البلاد الاقتصادية والاجتماعية والفساد الوظيفي السائد. وتأمين الوحدة الوطنية.

٨- أن تعمل من أجل إنهاء وجود القوى الأجنبية واستعادة البلاد لسيادتها واستقلالها.

٩- أن تعجل بإقامة مؤسسات الدولة وأجهزتها الأمنية والشرطة والجيش على أسس ديمقراطية.

١٠- أن تحافظ على الثروة الوطنية وتصونها من العبث والنهب وسوء التوزيع والاستخدام.

١١- أن ترفض المصالحة مع القوى التي مارست الجريمة فعلياً بحق الشعب في فترة النظام المخلوع أو تلك التي تمارس الإرهاب حالياً أو التي تسانده وتقود إلى مواصلة زعزعة الأمن والاستقرار وقتل المواطنات والمواطنين الأبرياء. وتبقى المصالحة الوطنية مع قوى غير قليلة ممكنة حين تتخلى عن الأساليب العنفية والتهديد باستخدام السلاح أو تشكيل المليشيات شبه العسكرية التي تزعزع الأمن والاستقرار في البلاد.

١٢- أن ترفض التدخل في شؤون العراق الداخلية من قبل الدول المجاورة وغيرها، وأن ترفض أي تدخل من الأراضي العراقية في شؤون الدول المجاورة، وتعمل على إقامة علاقات حسن جوار وتكافؤ واحترام متبادل مع جميع الدول.

لقد أقيمت في العراق حتى الآن ثلاث وزارات. دلل نشاطها على أن رؤساء الوزراء والوزراء، في ما عدا حالات قليلة، على وجود ضعف وعدم توازن وضعف الشعور بالمسؤولية إزاء المهمات والأمانة الموكولة بهم، فضلاً عن مواقفهم الحزبية والطائفية السياسية الضيقة والمحسوبية والركض وراء المصالح والأتباع، إضافة إلى بروز ظاهرة الفردية القاتلة في الحكم وانتهاك الشرعية الديمقراطية في عمل الوزارات.

إنني، ومن موقع الشعور بالمسؤولية الوطنية والديمقراطية والحرص على ما تحقق حتى الآن، أدعو جميع الأخوة الكرد في التحالف الكردستاني إلى إعادة النظر في موقفهم من ضرورة إقامة تحالف وطني وديمقراطي عراقي واسع في المرحلة الراهنة، وضرورة حسم موقفهم السياسي لمصلحة هذا التحالف، والبدء بالحوار مع بقية القوى الوطنية والديمقراطية العراقية في سبيل ضمان الوحدة الوطنية الديمقراطية لمواجهة التحديات الكبيرة الداخلية والخارجية ومواجهة الجهود المبذولة لإقامة دولة دينية ومرجعيات دينية في العراق لا تنسجم بأي حال مع تطلع المجتمع العراقي بمكوناته القومية وتنوعه الديني والمذهبي والفكري إلى الحياة الديمقراطية والمجتمع المدني الحديث. ورغم وجود بعض المواقف المتباينة، فإن إمكانية الاستناد إلى مواقف وأهداف مشتركة ليس للانتخابات القادمة فحسب، بل إلى ما بعدها. إن الفرصة لا تزال مواتية لتعبئة قوى وطنية وديمقراطية، بمن فيهم القوى القومية العلمانية، التي ترفض العنصرية والشوفينية، والشخصيات الإسلامية التي ترفض إقامة الدولة الدينية والمذهبية السياسية، لمصلحة الجولة الانتخابية القادمة وما بعدها، إذ أنها الطريق الوحيد الضامن لعراق ديمقراطي فيدرالي موحد وتعددي حديث.

الطائفية.. سبب للحب والحرب

علاء خالد غزالة

من نعم الخالق عز وجل ان خلق الناس مختلفين ، ولم يجعلهم على شاكلة واحدة. فجعل من بعضهم ابيض والاخر اسود ، وجعل بعضهم طويل القامة والاخر قصيراً ، وجعل بينهم قوي الجسد والاخر ضعيفه.

وجعل بعضهم ذكيا ألمعيا وغيره بالكاد يفهم الاشارة.. وبرغم ان من لم ينله القسط الاوفر من جمال الجسم، او حدة الذهن، ربما يكون ساخطا على خلقه، ناقما على عيشه، نادبا سوء حظه، عاتبا على ابيه لاتيانه به الى هذه الحياة الظالمة. لكن من بين حسان الجسوم من ضعف وانتابته الامراض، ومن بين المفكرين العظماء من ذهب عقله فلم يعد يعي شيئا. ولو تأمل الانسان لوجد في الاختلاف رحمة به، فقد اقتضى هذا الاختلاف شعور الانسان بعدم الكمال وبالتالي اخذ يبحث عن التكامل مع الاخرين، وذلك هو اساس تطور البشرية، ونموها وسيطرتها على الكوكب الارضي.

على ان الاختلاف شيمة بشرية خالصة اكثر تعميما من الشكل، وما قدر الله لكل فرد ان يكون عليه. فالبشر يختلفون في اللغات والاديان والمذاهب والعادات والتقاليد وغير ذلك اختلافا كبيرا. ولا تكاد تجد ميدانا يتفق عليه الجميع، بل هم يتفرقون الى فرق شتى وينتسبون الى اطياف متناثرة. وهم ينقسمون كل جيل تقريبا حول نفس القضايا التي انقسم عليها اباؤهم واجدادهم. ومع ذلك يحتفظ المجتمع بنوع من الوحدة، تحت رابط اوثق من الرغبة الشخصية. فالانسان تدفعه غرائز عدة وتحركه نوازع مختلفة. وكما ان الرغبة في التجمع غريزة متأصلة، فكذلك الشعور بالذات، والنزوع الى التفوق هي سمات بشرية محضة.

ولعل سبب الانقسام يأتي اصلا من تصارع نوعين من الانتماء داخل الفرد يدفعه الى ايجاد انتماء مشترك، فالقومية قد تكون اقوى من الانتماء الديني في احد المجتمعات بينما يكون العرق اقوى من كليهما في مجتمعات اخرى. وحين يتفوق الشعور القومي ينتج مجتمعات علمانية تقدس الفردية ضمن الهيكل الاجتماعي. بينما تكون صفة المجتمعات المؤسسة على قاعدة الدين الايثار والرغبة في التضحية. وحين يشعر بعض الافراد ضمن احد هذين بضرورة مراعاة الصفات الاخرى، ينشأ نوع من التوفيق يميز توجهات هؤلاء الافراد، ويؤسس لطائفة جديدة تتبنى صيغا اجتماعية مقتبسة عن كل منهما.

وعلى هذا، فان الطائفية هي احد مظاهر التطور الذي يمر به البشر، في محاولة تصحيح مسار التاريخ، وفي رفض المسلمات المتوارثة. ولو قدر للبشر ان يكونوا على شاكلة واحدة، لتوقف مجرى التاريخ، ولاصبح التعايش بين الافراد مملا الى حد الجنون. والطائفية بعد ذلك نتاج الفكر البشري عبر عصور طويلة من السعي المضني وراء الحقيقة. فهي نتيجة حتمية لرقي الانسان التواق الى اختراق المجهول، والخوض في الغمار الصعبة، متحديا ذاته لاثباتها او فهمها.

لكن الطائفية على مستوى الفكر لا تسود. وما تسود، كما اثبتت وقائع التاريخ، رغبة اخرى في نفس الانسان، تلك هي فرض الذات، مهما تكن الطرق والوسائل المتبعة، وان كانت بالحروب والتقتيل والتهجير والاستعباد. وهنا مكمن الخطر على الجنس البشري. اذ ان الرغبة في تسييد الطائفة، التي يستعملها عادة قادة طموحون الى السلطة المطلقة، قد تدفع الافراد الى التصرف بشكل لا عقلاني وتوقعهم تحت تأثير المد الجمعي، ثم تغير نوازعهم ومثلهم وتجعل منهم اشرارا لا يرجى لهم صلاح.

لكن الشر ليس اصلاً في الانسان. والمجتمعات البشرية اوجدت سبلا للقضاء على التطرف الشرير، وهي جميعا تستظل بمظلة القانون، وتؤمن بضرورته. كما اوجدت المجتمعات الانسانية معايير لتقديس الخير وتحفيزه في النفس، وتجعله الغاية القصوى للاشياء. وفي كل تجمع بشري هناك خطوط عريضة يتفق عليها الجميع. ولكنهم ينقسمون تحت هذه المسلمات الى مجتمعات اصغر وتلك تنقسم لاحقا الى ما هو اصغر وهكذا. واذا كان الخير والشر عنصري الحياة الدافعين، فان اولهما يمثل رغبة المجتمع الاكبر في الحق والمساواة والمصالح المشتركة، ويمثل الثاني رغبة المجتمع الاصغر في الاستئثار، والمكاسب الضيقة. وهما يتصارعان على الدوام على مستوى الفرد الواحد، وعلى مستوى المجتمعات الصغرى صعودا.

غير ان البشرية مع ذلك اوجدت سبلا للتعايش المشترك برغم وجود الخلافات، يقوم على اسس تحترم الطوائف والمذاهب والاعراق ولا تقلل من شأن أي منها، وتتيح لكل منها ان ينتهج نهجه الخاص طالما كان خاضعا للقانون. وخوفا من جور القانون الذي يسنه البعض، ولدت فكرة الاشتراك في سن القانون من قبل الجميع. وخوفا من جور القائمين على تنفيذ القانون ظهرت اليات المشاركة في الحكم. وخوفا من استئثار الحكام بالسلطة وابتعادهم عن المحكومين، مهما تكن انتماءاتهم، اقر مبدأ المناوبة على السلطة. ولعمري هذه هي المفردات التي تحدد مفهوم الديمقراطية الحديثة. ان الطائفية التي تريد تسييد افكارها انما هي امر مقيت تجدر محاربته. لكن الطائفية لا تُجتث، بل تُروض. واذا اتيحت الفرصة للكل في المشاركة، فلن يكون هناك دافع حقيقي للنزاع. واذا كانت هذه المشاركة فعالة، فستكون العامل الاساس في تطور المجتمع ورقيه. وقد ادرك الانسان منذ وقت طويل ان السلم قد يكون هشا، ولكن الحروب لا تحل المشاكل. وبرغم الحرب الضروس، تبقى امنية المقاتل في مصافحة عدوه ومعانقته اكثر من قتله، او الموت على يديه. ولم يكن هناك عدو دائم في لغة التاريخ. ولو قدر لمن ماتوا في الحروب ان يعودوا، لتعجبوا من غبائهم، باهدارهم الفرص الكثيرة في السلم عن طريق التسامح، بدلا من فقدان الارواح والاموال بتعصبهم الاعمى وغير المبرر.

واذا اردت ان تعد انجازات الانسان على مدى تاريخه المدون، فلن تجد اعظم من ايمان الأغلبية الساحقة من البشر بضرورة التسامح مع الاخرين، برغم اختلافهم في كل شيء اخر تقريبا. ذلك ان الاختلاف لا يكون صحيا الا في جو من التسامح وقبول الاخر. وما دامت الحقيقة النهائية للاشياء لا يمكن ادراكها لقصور العقل البشري، كما يحلو للفلاسفة ان يصفوه، فكل حقيقة ظاهرية ممكنة. وكل ما يؤمن به الاخرون ممكن، ولكن هناك ترجيح فقط لما نؤمن به نحن. ومن هنا يمكن ان نحب الاخرين لاختلافهم عنا بقدر ما نستطيع ان نتسامح معهم. ولا شك ان المؤمنين بالمبادىء السامية للدين الاسلامي يقرون انه سمح بما فيه الكفاية لقبول الاخر. اذن فليكن الاختلاف سببا للحب لا للحرب، لاننا متحضرون، ولاننا مؤمنون، ولاننا خليفة الله على الارض.

http://aghazala.blogspot.com